

على بحث « الاستعمار وازمة التطور الحضاري » للدكتور ابراهيم ابولفد

تعقيب

في بحثنا لازمة التطور الحضاري في الوطن العربي ودور الاستعمار في هذه الازمة يجب ان نعود قليلا الى الخلفيات التاريخية للاستعمار حتى نقيم مدى اثره في ازمة التطور الحضاري في بلادنا .

واعتقد ان الاستعمار الاوربي للعالم العربي لم يهاجم بقته هذه البلاد في القرن الماضي واوائل هذا القرن ليضع حدا لاستقلالها فحسب ، ولكن له خلفية تاريخية لها صلة قوية بالتطور الحضاري لاوروبا وصراع الحضارة مع العالم العربي . وواضح ان مهاجمة الجزائر سنة 1830 ثم تونس 1880 ومصر سنة 1889 ثم السودان سنة 1896 ثم المغرب سنة 1912 ثم تقسيم منطقة الشرق العربي الاوسط بين فرنسا وانجلترا بعد الحرب العالمية الاولى ، واضح ان هذه العملية الجريئة لم تكن فقط رغبة في احتلال هذه البلاد بل كانت الى جانب ذلك حلقة من حلقات اصطدام حضارة الغرب المسيحي بحضارة الشرق الاسلامي . وقد بدأ هذا الاصطدام منذ الحروب الصليبية التي استمرت ما بين القرن الحادي عشر والقرن الثالث عشر .

وتركت رغبة الاستعمار في الفكر الاوربي في القرن السادس عشر حين بدأت فكرة السلطة العليا تراود الاباطرة والرؤساء الدينيين والمدنيين في اوربا ، واخذت دول غرب اوربا وعلى الاخص اسبانيا والبرتغال تقتسمان الاراضي الاوربية ثم تطلعن الى ما وراء البحر ليمدوا امبراطوريتهم على افريقيا والامريكتين معا . فيما يخص الجانب العربي من افريقيا كانت المنطقة الغربية ، اي المغرب العربي ضحية هذا الهجوم الاستعماري اذ اخذ البرتغاليون يهاجمون المغرب منذ القرن الخامس عشر . وفي القرن السادس عشر كان البرتغاليون بالاتفاق مع الاسبانيين قد فصلوا المغرب نهائيا عن البحر باحتلال شواطئه الواسعة على المحيط بكل مدنهما تقريبا كما احتلت اسبانيا شواطئ الجزائر من وهران حتى المرسى الكبير ، وحتى طرابلس في ليبيا تنفيذاً للحلف الاستعماري الاسباني البرتغالي .

ولولا الحملة التي قام بها شعب المغرب في الربع الاخير من القرن السادس عشر والتي انتهت « بمعركة الملوك الثلاثة » في وادي المخازن في اغسطس 1578 والتي قضى فيها نهائيا على الامبراطورية البرتغالية ، لولا هذه الحملة لتغير وجه التاريخ العربي .

لم يكن الهدف من الحملة على شمال افريقيا العربية دفاعيا حتى لا يعود العرب الى الاندلس فحسب ، ولو ان هذا السبب كان رئيسيا ، وما يزال المغرب ، يعاني نتائجه في احتلال اسبانيا لسبتة

ومليبية ، ولكنه الى جانب ذلك كان سببا اقتصاديا ، فقد كان البرتغاليون يستهدفون السيطرة على منافذ الطرق الصحراوية وابعاد كل منافس عنها ، والوصول من وراء ذلك الى السيطرة على ذهب السودان - الذي كان في يوم ما في يد العرب المغاربة - وحاولوا الى جانب ذلك الاستيلاء على منطقة سوس المغربية التي كانت اكبر حقل لقصب السكر والقطن ، وكان المغرب ينتجها بكثرة ، وهكذا استولوا على مراكز الذهب الاقتصادية للمغرب ، فخنقوا المغرب اقتصاديا ووقع في ازمة لم يستطع معها مواصلة دوره الحضاري في المنطقة العربية الغربية ، كما لم تستطع الجزائر ولا تونس لهذا السبب .

لم يكن الاستعمار الاوربي الحديث الا حلقة من هذه السلسلة الطويلة ، فقد تطور العالم الاوربي صناعيا في القرون الثلاثة الاخيرة واخذت دول غرب اوربا تستفيد من المفاخرات الاسبانية والبرتغالية ، وتطور التفكير الاستعماري من عملية النهب الى عملية اكثر تعقيدا هي ما يمكن ان نسميه النهب الهائري اذ اصبح النظام المالي الجديد يتركز في السيطرة على الارض المفتوحة لتحويل انتاجها من المواد الخام الى موارد لصناعة راسمالية توسعية ، واستنزاف اليد العاملة في شكل عبيد من افريقيا ، وتحويل انتاج اليد والارض الى مواد تجارية تعود بدورها الى الاراضي المستتبلة لتدر الذهب والمال على الدول المصنعة المستبلة .

وهكذا لم يكن الاستعمار عملية احتلال واستيلاء على الارض بدعوى الدفاع عن النفس عند الاوربيين الغربيين ، او لنصرة الكنيسة عندهم وعند الاخرين فحسب ، ولكنه تحول الى اخضاع الحضارات القديمة في العالم العربي بكل ما تقوم عليه من اسس ومفاهيم وصناعات لتفتح المجال امام الصناعات الفرنسية والانجليزية والاسبانية والبرتغالية والاطالية .

والواقع ان هذا التحدي الحضاري انزلق بالعالم الى تقسيم خطير . فقد اصبح الاستعمار كما يقول بيتر وورسلي في كتابه « العالم الثالث » نظاما عالميا اساسه الفتح ودعامته القوة . والعالم الجديد لم يكن عائلة من الامم المنسجمة . لقد كان بشكل رئيسي غير متناسق ، ففي القطب الواحد وقفت اوربا بصناعاتها ، وفي القطب الاخر الامم التي حرمت من كل ميراث . ومن التناقض الظاهري ان العالم قد قسم خلال عملية توجيده الى مناطق نفوذ والى فئسي وفقير .

وتعدى التحدي هذا النطاق « ليصبح تفوق أوروبا الطبيعي في نهاية القرن التاسع عشر مبدأ ساريا لا مراء فيه . وقد حكمم بالانحطاط والضعمة على حضارات الشرق المتنوعة التي كانت محترمة يوما ما . حتى الأوربيين يعلنون في تبجح : ان رفا واحدا في مكتبة أوربية جيدة يعادل كل التراث الوطني للهند والجزيرة العربية .

وكان لهذا التحدي اثره النفسي الخطير فان « تدويل » التفوق الكلي للحضارة الأوربية وتقبلها عامة هما اللذان ابقيا العالم غير الأوربي في حالة خضوع نفساني طويل الأمد ، وليست القوة وحدها هي التي فعلت ذلك .

هذا هو التحدي الاول من الاستعمار الغربي للحضارة العربية ، وهو تحدي الرأسمالية الخطيرة التي زحفت على العالم تدمر في طريقها كل القيم الإنسانية فتحلت الأرض ، واستعيد الإنسان ، وتستقل الثروة وتقطع منافذ الاتصالات الإنسانية لتحتكرها لمصلحة نموها ، اي نمو الثروة الفردية .

ولكن هذا التحدي كان يحمل في طياته تحديا من نوع آخر . فقد كان القرن الثامن عشر والتاسع عشر اللذان تركز فيهما الاستعمار الأوربي في العالم يعبر عنهما بعهد النور ، ويصف ميشليه القرن الثامن عشر بانه « القرن العظيم » . ومن حق الحضارة الأوربية ان تفتخر بهذا القرن . فقد تطورت العلوم الطبيعية والكيميائية والرياضيات وعلم الفلك والعلوم الإنسانية تطورا كبيرا وظهر امثال ديكارت ولوك ونيوتن وجان جاك روسو وكانت وغيرهم من الذين ما تزال تقوم على كتبهم اسس الحضارة الفكرية . ويمكن ان نقول اننا دخلنا في بداية القرن العشرين منذ القرن الثامن عشر من حيث التطور العلمي . اذ اصبح الإنسان يتعلم كل يوم شيئا جديدا على غرار ما واجهنا به حضارة القرن العشرين . ساد في هذا القرن الايمان بتقدم الإنسانية وبدا الإنسان ينسلخ من التعبد للماضي ، والانقياد المطلق لرجال الدين ولكراء الخرافية والطقوس التي التصقت بالدين او استخدمها رجال الدين لابقاء سيطرتهم على المجتمع . وظهرت مفاهيم فلسفية جديدة ، في الفكر الديني والفكر المادي على السواء . كما ان القرن التاسع عشر سجل الايمان المطلق بالعلم واكتشاف الكون وانتصار العلم التجريبي النفعي . هذا بالإضافة الى تطور التقنيات العسكرية والملاحية والصناعية والإنسانية .

القرن الثامن عشر والتاسع عشر اوجدا نوعا من الشبغ والامتلاء في الحضارة الفكرية والمادية الأوربية . والمكسب يولد مزيدا من الطامع والفكر الآادي والتقنيات تولد مزيدا من التنافس . ومن ثم كانت الحروب بين دول أوروبا بدأت اقليمية وانتهت دولية ، لمحاولة السيطرة على المحيطات ، وعلى القارات الآسيوية والأفريقية ، استمرارا للإمبراطوريات الآسبانية والبرتغالية . فبدأت محاولات الاستيلاء على الهند منذ بداية القرن الثامن عشر ، وتم هذا الاستيلاء سنة 1789 ونحن نعرف ماذا جره الاستيلاء على الهند من مشاكل استعمارية للعالم العربي باجمعه .

وهناك اذن تحد آخر ليس قوامه المال والقوة الصناعية ولكن قوامه العلم والحضارة الفكرية . النمو العلمي والفلسفي وتطور الحياة في الميدان التقني هو الذي جعل سادة أوروبا من الفرنسيين والانجليز ينظرون بنوع من الاستخفاف للحضارات القديمة التي نشأت في الهند او على ضفاف البحر المتوسط الجنوبية والشرفية باعتبارها حضارة انتهت وتجاوزها الزمن ، ولم تصد غير مومياء تشد عقل الإنسان بسحر غيبي الى الماضي وتفرقه في كثير من التضييل الخرافي .

هذه الحضارة التي نقلتها أوروبا لا يمكن اغفالها في بحثاظمة الحضارة في الوطن العربي ، ولو ان الأوربيين نقلوا معهم حضارتهم لهم ومن اجلهم ، ونقلوا بعضها لسحرونا ويؤثروا على قوة مقاومتنا ، كما فعل نابليون في مصر ، او ليستعينوا بهذه الحضارة الفكرية

في اكساف بلادنا والسيطرة عليها ، كما فعل علماء الانسانيات وهم يسربون الى المناطق المختلفة من بلادنا العربية ليكتشفوها جغرافيا وتاريخيا وانسانيا وحضاريا . وكانت تقاريرهم هي التي اعتمدت عليها جيوش الاحتلال وهي تشق طريقها في الجبال والادغال والصحاري .

الجانب الثالث من التحدي الحضاري الذي واجهنا به الاستعمار ، قصد الى ذلك او لم يقصد ، هو النظم السياسية والاجتماعية الجديدة التي تطورت في أوروبا في القرون الثلاثة الاخيرة نتيجة للتطور النظري والعمل في هذه البلاد فنحن نعرف التطور الذي حدث منذ القرن السابع عشر بانجلترا في تطور نظام الدولة وظهور الفئات الاجتماعية من الأورستقراطيين والبورجوازيين والمكيين والداعيين الى الاشتراكية ، والعمالين في سبيل الديمقراطية والنظام التمثيلي . ونحن نعرف ان الثورة الفرنسية انبعثت من الاحتكاك بين هذه الفئات الاجتماعية التي تركزت في المدن التي كان فيهما البورجوازيون مسيطرين ، وبدأت الطبقة البروليتارية تبحث عن وجودها نتيجة تطور الصناعة ، وفوق هؤلاء واولئك كان النبلاء واصحاب الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية ، ثم طبقة الفلاحين الفقراء والى جانبهم الاقطاعيون الكبار . هذا الخليط من الفئات الاجتماعية التي فتحت اعينها على عصر النور والعلم بدأت تفكر في نفسها وفي مصالحها وفي حقوقها الإنسانية وكانت الثورة التي انتهت بالغاء النظام الاقطاعي في صورته القديمة والتي حققت الحرية والمساواة والعدالة ، واعلنت حقوق الإنسان وحولت النظم الاقتصادية والتشريعية بعد ان وضعت السلطة التشريعية والتنفيذية في يد الشعب وحاولت اعادة النظر في توزيع الثروة ، ومكنت الفرد من حريته المطلقة .

وعن الثورات الانجليزية والفرنسية نشأت الانظمة السياسية والاجتماعية المختلفة : الجمهورية بدلا من الملكية المقيدة بدلا من الملكية المطلقة الدكتاتورية ، الديمقراطية البرلمانية ، الافتراع العام ، المجلس المنتخب الخ .

هذا فكر حضاري انتقل اليها مع الاستعمار ، اراد الاستعمار ام لم يرد شعرنا بذلك نحن او لم نشعر . بل ان الاستعمار - والاستيطان منه بصفة خاصة - اخذ يطبق هذه الانظمة في بلادنا ، فكان ينظم المجالس البلدية والفرف التجارية والنقابات وينظم انتخابات لمثلي المستوطنين الفرنسيين مثلا في المجلس الوطني الفرنسي بل المثلين للبلاد التي الحقها بالوطن المستعمر فسي المجلس كما كان يحدث في الجزائر .

هذه انظمة حضارية دخلت لبلادنا عن طريق الاستعمار ، سواء منها ما صنعه هو بنفسه او ما قلدهاه فيه . ودخلت بلادنا مع ما يتبعها من فكر تحرري تقدمي يهدف كما هدف الفكر الأوربي حينما اصطنع لنفسه هذه الانظمة - الى تطوير البلاد سياسيا واقتصاديا واجتماعيا على اساسها . وهي بدون شك تحد للانظمة الحضارية التي عاشت عليها بلادنا رحدا طويلا من الزمان .

والتحدي الرابع نجده في التراث الادبي والفني والموسيقى الذي انتقل اليها مع الاستعمار ، فاخذ العالم العربي يتطلع الى ما ينتجه الادباء والفنانون والمثقفون على العموم من انتاج باللغات التي تعلموها عن طريق الاتصال الذي اوجده الاستعمار ، ويتأثرون بالفنون المختلفة من مسرح وموسيقى وفنون تشكيلية وصحافة وطباعة الخ . وهو نوع من التحدي للحضارة العربية التي لم تعرف من هذه الفنون الا التراث الادبي والموسيقى والتصوير الذي نصرف .

والتحدي الخامس نجده في الفكر الاشتراكي الذي انتقل اليها من

نهضة نشأت في مصر بعد ذلك .

ولعل احدا منا لا يستطيع ان ينكر ان افكار الثورة الفرنسية قد دخلت مصر عن طريق الجيش الغازي : جيش نابليون سنة ١٧٩٨ وان العلماء الذين صحبوه قد نقلوا الكثير من مكتسباتهم العلمية - ارادوا او لم يريدوا - الى مصر ، وان البيان الاول الذي اصدره نابليون في الاسكندرية باسم الحكومة الفرنسية يحمل بعض افكار الثورة الفرنسية في الحرية والمساواة والعدالة ، ثم التبشير بعهد الخلاص الذي وجد فيه المصريون فكرة الخلاص من المماليك ، ولم يجدوا فيه بالطبع الخلاص العملي على يد الفرنسيين ولا على يد الاحتلال الفرنسي او الانجليزي بل ان الاحتلال الفرنسي اوحس للمصريين بفكرة المقاومة لهذا الاحتلال نفسه . ذلك ان نابليون اجنبي غريب غير مسلم ، ولا يمكن الا ان يكون كما قال الجبرتي شاهد العصر « انعكاس الطبوع وعهوم الخراب » .

وما من شك في ان السنوات القليلة التي قضاها الفرنسيون في مصر قد اثرت في نظام الحكم الذي اقامه محمد علي بعد ذلك ، ولو ان الحاكم المطلق لا يمكن ان يستفيد من التجارب ، ولو كانت مثل التجارب التي اتى بها عصر التنوير . ونحن لا ننكر الاثر الذي تركه الحكم التركي في العالم العربي ، وخاصة في مناهضة استبداد السلطة والتطلع الى حكم ديمقراطي . فكله من نتاج الحكم الاجنبي سواء كان تركيا او فرنسا او انجلترا .

هذا النهدي الحضاري في مظاهره المختلفة التي تحدثنا عنها صاحبه نحد من نوع آخر وضع اللقاء الانساني ، اذ ان ذلك ، حول حضارة انسانية واحدة في شبه المستحيل فسد انتشار الاوروبيين في الشرق والغرب وحتى في اوروبا نفسها تدفعهم روح الفتح والغزو . اكتملت لهم الوسائل الفكرية والفلسفية والعملية والتقنية ، وفجروا صراهم الداخلي - بين انجلترا وفرنسا مثلا - فيما وراء البحار ، فأخذوا يتنافسون على الهند مثل ما تنافسوا على امريكا وما بين امريكا والهند وما يقع في طريق مراكز الامبراطوريات هذه ، ويصفون حساباتهم بالحروب ، التي تنتهي بغالب ومغلوب ، ولكنها تنتهي مهما يكن الغالب باحتلال مستعمرة جديدة . وكان الوطن العربي ضمن هذه المستعمرات المحتلة . ولكنهم كانوا ينظرون الى هذه المستعمرات نظرة احتقار واستخفاف ، ويعاملونها بما يتبع الاحتقار والاستخفاف من اضطهاد واستغلال . فقد اخذوا يؤمنون بانهم وجدوا هذه المستعمرات اقواما متخلفين في الحضارة وغيبيين لاهوتيين ، بينما كانت الفلسفة الاوروبية يميزها العقل العملي ، والوسائل العلمية التي يستخدمونها تطبقها التجربة .

وقد سيطرت روح الاستغلال والربح والاضطهاد على روح تكوين الانسان وتطويرة التي بدأت في القرنين السادس عشر والسابع عشر . فلم تعد الحضارة مطبوعة بطابع الروح العلمية الحقيقية حتى داخل البلاد الاوروبية نفسها ، ولذلك كان نشر المعرفة والحضارة الفكرية انما يأتي عفويا عن طريق الافتداء والتقليد من المستعمر للمستعمر ، او عن طريق الضرورة التي تدفع بالمستعمر ان يرفع من شأن المستعمر حتى يحقق الهدف كاملا وهو الاستقلال الكامل .

وهكذا نشأ بين الفريقين : سكان البلاد الاصليين والمهاجرين من الاوروبيين صراع بدأ بالرعب والكرهية وسوء الظن لينتظر بعد ذلك الى القطيعة حتى في المجال الحضاري ، ومن القرنين الماضيين في صراع رهيب . اذ بدأ الاستعمار الاوروبي يهاجم الهند في مطلع القرن الثامن عشر عن طريق شركة الاستغلال الانجليزية (شركة الهند الشرقية) وشركة استغرافية فرنسية ، وانتهى الصراع بين الفرنسيين والانجليز بانتصار انجلترا سنة ١٧٨٩ . وضاعت قوة الصين واستقلالها وخبت شمس حضارتها العظيمة في اواخر القرن ، وسقطت اليابان

الاتصال الفكري بالثورات الاوروبية وخاصة ثورة اكتوبر ثم مكن له في الوطن العربي بعد الحرب العالمية الثانية وعلى اثر انتصار الاتحاد السوفيتي على الجيوش النازية والفتح الذي شهدته هذه البلاد بعد الانزال الستاليني ، ثم بعد الثورة الشيوعية في الصين وانتصار الماوية في الشرق الاقصى بعد حرب فيتنام .

هذا الفكر الحضاري ليس اتجاهها سياسيا فحسب ، ولكنه الى جانب ذلك اتجاه فكري فلسفي اقتصادي يمكن ان نقول انه اقوى فكري يمكن ان يصطدم مع الحضارة العربية الاسلامية التي عاش عليها الوطن العربي في تاريخه .

هذه جوانب من التحديات ليست كلها سلبية ، ولكن الجانب الايجابي فيها لا يقل عن الجانب السلبي ان لم يكن يفوقه بكثير . وخالصة هذا الجانب الايجابي ان الاستعمار وصلنا بالعالم وبالحضارة الحديثة ، وبالفكر المتطور الحديث .

هل كنا سنصل دون واسطة الاستعمار ؟

سؤال اعتقد ان الاجابة عنه لا تجدي . فلم تكن في حاجة الى المؤرخين الاستعماريين ولا الى المستشرقين ليفتحوا اعيننا على الجانب الايجابي في الحضارة الاوروبية التي نقلها الاستعمار لبلادنا . ولم تكن في حاجة الى « الدراسات والبحوث القليلة الجديدة التي رفضت الاسس الفكرية لهذه النظرية ، والتي تدل دلالة واضحة على ان حركات التغيير في العالم العربي ، ومحاولات استئناف النشاط الفكري والسياسي سبقت الوجود الاستعماري في المنطقة » كما يقول الاستاذ المحترم الدكتور ابراهيم ابولقد .

فالفكر الفلسفي الذي قامت عليه حركة الوهابيين المنطلقة اساسا من الفكر المتحرر لابن تيمية ، والحركات التي قامت في الازهر او في فلسطين او عند الشهابيين في لبنان او الصراع الذي كان بين الحكم التركي والشعب في مصر والجزائر وتونس كل هذه الحركات التحررية لا يمكن ان تعتبر بديلا للتحدي الحضاري الذي واجهنا به الاستعمار وهو يقتحم الوطن العربي .

وما نظن اننا في حاجة الى التذليل على ان مسيرة الثورة الوهابية في الجزيرة والسوسية في ليبيا والشهابية في لبنان لم تكن لتفتح اعيننا على حضارة القرن العشرين ، ولم تكن لتوجد ازمة حضارية نعانيها في حياتنا وندرسها في هذه الندوة .

ويقول الدكتور ابراهيم : « ان الاحتلال الانجليزي لمصر والاحتلال الفرنسي لتونس جاء بعد ان نجحت الفئات الوطنية في مصر وتونس في وضع اسس طيبة للحكم الوطني ، اذ ان الحركات الوطنية والفكرية في مصر وتونس عبر القرن التاسع عشر صارت الفئات الحاكمة للحصول على مزيد من حرية العمل والفكر ولتحديد الحكم المطلق للولاة منها ، ووضع اسس دستورية وتشريعية كفيلا بالمساهمة الشعبية في الحكم .

ولعل الدكتور ابراهيم في حاجة الى كثير من الحجج ليؤكد ان هذه الحركات ذاتية وليقرر ان النفوذ الانجليزي في مصر لم يبدأ سنة ١٧٧٥ حين نال الانجليز الترخيص لهم بالدخول الى مرفأ السويس ، وحينما اشاوا فنيصية بالقاهرة في السنة التي تليها ، وحينما اخذ منذ ذلك التاريخ المبكر الضباط الانجليز والموظفون والتجار يعتمدون السويس في طريقهم الى الهند عبر الصحراء . ثم حينما ركز الفرنسيون لينافسوا الانجليز ، مثل هذه الامتيازات بعد ذلك بنحو عشر سنوات فقط ، وحينما اخذ الفرنسيون منذ ذلك التاريخ يفكرون في احتلال مصر ، وحينما كون الفرنسيون لانفسهم امة خاصة داخل الدولة المصرية بنظمها وامتيازاتها يرأسها القنصل . ولعله ايضا في حاجة الى كثير من الجهد ليؤكد ان هذا الاستعمار المنع لم يكن له تاثير مباشر او غير مباشر في اية

ايضا في نفس الفترة . وهكذا تعرضت الحضارات الثلاث الكبرى في وسط وشرق اسيا للكسوف ان لم نقل للانهايار . وفي نفس الوقت بدأ الهجوم على حضارة الشرق العربي ، بدأ الانجليز يداعبون مصر في سنة ١٧٧٥ وبدأ الفرنسيون بعد ذلك بعشر سنوات وتدخلت الاسطول الفرنسي في أحد موانئ تونس سنة ١٧٨٤ ونالوا امتياز احتكار صيد المرجان وانشأوا وكالة تجارية في بنزرت . ثم جاء الهجوم على الجزائر سنة ١٨٢٠ . وبدأ سقوط اوراق الوطن العربي واحدة بعد الأخرى حتى تعرت الشجرة في الربع الأول من القرن العشرين .

نحن اذن امام مواجهة خطيرة بين حضارة قديمة معتمدة على اصول صالحة للبقاء ، وصالحة كاطار لنمو عقلية جديدة ومفاهيم حضارية جديدة هي الحضارة الاسيوية الابريقية العربية التي يطبعها الاسلام ويفتح آفاقها على فكر منفتح ولكنها اصبحت حضارة ذاوية منكهشة تعتمد على اناضي وخاف من المستقبل ، وبين حضارة جديدة متفتحة ذات آفاق اوسع ومتمهجة نحو المستقبل ، وتستخدم الوسائل التقنية التي تقرب منها هذا المستقبل .

وقد كان الوطن العربي حتى نهاية الحرب العالمية الماضية محكوما عليه بان يواجه هذا الصراع سلبيا ، لانه لم يكن يملك ان يختار السبيل التي يسلكها في تطوره الحضاري . ولكننا مع ذلك كنا نواجهه - ونحن نلتمس المستقبل - عقدا خطيرة في مواجهتنا لحضارة الخصم . ومن المؤسف ان تكون هي قد اتخذت منا موقف الخصومة . من هذه العقدة :

اننا كنا نخاف من الحضارة الجديدة لان اهلها ينتسبون الى عالم اخر دينيا وعرفيا ولقويا وحضاريا ، عالم دابنا على ان نسميه عالم الكفر بكل ما تحمل هذه الكلمة من مفارقة لعالمنا الذي كنا نعتز به وننشيت به في حماس ولهذا نحاول ان ندافع عن انفسنا ازاء الحضارة الحديثة حتى لا تفرقنا في عالمها الكافر . ومن سوء الحظ ان الذي زاد في تركيز هذه العقدة هو الاستعمار نفسه الذي حاول ان يقضي على اسس حضارتنا حتى الدينية منها والقوية والفكرية وما حاول الاحتفاظ به من الحضارة الفنية كالانار والفولكلور والمعن العتيقة ، انما كان يقدر ما يحقق اهداف الاستعمار ومصالحه واستغلالاته السياحية مثلا . ثم مما زاد في تركيز العقدة ان الحضارة التي حملها الاستعمار اقترنت بالجانب السيء فيها : العنصرية ، والاستغلال الفكري ، والاغراق في المادية ، والرأسمالية الاستغلالية ، ونهب الثروة الوطنية ، وتركيز الاقتصاد النفسي ، وحتى التعليم كان - في كثير من البلاد العربية - على حساب اللغة والدين والانسية والحضارة الوطنية . هناك اذن مركبات وعقد ازاء الحضارة الابريقية الحديثة جاءتنا من انعدام الثقة بين الوطن العربي واروبا الاستعمارية .

والان بعد ان استقلت معظم بلاد الوطن العربي واصبحت تصنع مصيرها بنفسها ، هل يجوز ان نظل هذه العقدة متحكمة فينا ونحن نلتمس طريقنا نحو حضارة جديدة او نحو تجديد حضارتنا .

اذا كان للمخاوف القديمة ما يبررها فيجب في عهد بناء كياننا الجديد ان نتغلب على هذه المخاوف والعقد ، وان نتخلص منها وقد اصبح في امكاننا ان نتحكم فيما نقبله وما نرفضه من حضارة الغرب . واعتقد ان الانتصار على هذه العقدة لم يعد من حقنا فحسب ، ولم يعد واجبا علينا فحسب ، ولكنه اصبح في استطاعتنا لاننا بلغنا فيما اعتقد سن الرشد ، ليس الرشد السياسي فحسب ، ولكن الرشد الحضاري كذلك .

السج على هذه النقطة بالذات لاني لاحظت في بحث الدكتور ابو لغد ما اشعرني بان بعض هذه العقدة ما يزال متحكما في النخبة المفكرة . ولذلك فان ازمة التطور الحضاري ليست عملية تعترضنا اثناء الممارسة فحسب ، ولكنها فكرية كذلك تعترضنا اثناء التفكير في طريقة الخروج من الازمة .

من هذه النقط التي لاحظتها في بحث الدكتور ابو لغد والتي يحتاج فيها الرأي الى مناقشة :

اولا : حينما قال : « ان حركات المقاومة السياسية والعسكرية في الوطن العربي نشأت للقضاء على السيطرة العسكرية السياسية للصنتمهر الغربي . ورغم حرص حركات المقاومة على الاستقلال السياسي لسلاجزاء المختلفة للوطن العربي الا انها قبلت مبادئ اساسيين . ويهتتا في هذه المناقشة المبدأ الثاني الذي قال فيه : « نجد ان حركات المقاومة التي رافقت وحلت محل الاستعمار انطلقت من منطلقات عربية غربية ، وهدفت الى تحرير ذلك الجزء من الوطن العربي الذي نشأت فيه . ولا نود ان نقول انها رفضت فكرة الوحدة العربية او وحدة الوجود العربي ، الا انها مع ذلك مارست هذا الرفض على الصعيد العملي » . ويخلص من ذلك الى انعدام الحوار الحضاري على المستوى العربي ككل .

وهذه ظاهرة حقيقية يؤسف لها . ولكن لا ينبغي ان ننسبها لمنطلق غربي في التفكير ولا للرفض العملي لفكرة الوحدة او وحدة الوجود العربي بمقدار ما يجب ان نرجعها الى حقيقتها ، وهي التهاون في تسييق النشاط الفكري وفي التعاون بين مراكز الحضارة كالجامعات والمجامع ودور النشر واجهزة التثقيف والاعلام . الفكر الغربي لا يعرف هذه الحدود . ويمكن ان تقرأ الكتاب الانجليزي او الفرنسي في اي بقعة من العالم في نفس الاسبوع الذي يصدر فيه في باريس او لندن مثلا ، ولكن لا يمكن ان تقرأ حتى كتابك في المغرب لو صدر في بيروت او الكويت مثلا الا بالصدفة . ومثل ذلك يقال عن الحوار الحضاري على النطاق العربي .

المشكلة اننا لم نهجر انفسنا بعد للحياة في العصر الحضاري الحديث . ولا ينبغي ان نعلق تخلفنا في ذلك على المنطلق الفكري الغربي .

ثانيا حينما قال :

« ان ما حدث نتيجة للوجود الاستعماري السياسي والفكري وتغلب التفكير الغربي ان الاوطان العربية قبلت اشكالا من السيطرة السياسية ونظريات الحكم المستمدة من الفكر الغربي الليبرالي والفاشي والماركسي منه ، ولم يعد للفكر السياسي العربي الاصلي اي انعكاس في الحكم في العالم العربي الا في المناطق التي نعتتها بالتقليدية والشيخية . فان كان هناك حوار معاصر حول مستقبل الحاكم والواطن في هذا الوطن او ذاك فانه لا يبالغ ان قلت بان هذا الحوار يقتصر اولا على تلك الفئات التي تتقن غريبا او تلك التنظيمات السياسية التي استلهمت هذه الفكرة » ليخلص الى هذا التأكيد : « الواقع ان الفكر العربي لم يعد الى التاريخ العربي ليدرس ويوضح الاسس الاشتراكية لمجتمع عربي سابق ، وكأنه باستخدام شعار معين اثبت الاصول التاريخية للفلسفة الغربية المستوردة » .

في هذه الفقرة كثير من النظريات واستنتاجات لست على وفاق مع الدكتور ابراهيم حولها :

اولها : ان تغلب التفكير الغربي هو الذي جعل الاوطان العربية تغلب اشكالا من السيطرة السياسية والنظريات الليبرالية والماركسية . هذه الفكرة يمكن ان تقال في عالم معزول لا يعيش عصره . والعالم العربي لا يمكن ان يكون معزولا عن التيارات العالمية الذهبية والسياسية . فلا مندوحة له وهو يقرأ تاريخ اليونان ان يعرف شيئا عن الانظمة الديمقراطية عند اليونان او عن سيادة القانون عند الرومان ، فأحرى حينما يعاش نظم الجمهوريات الفرنسية المتعاقبة او النظام الديمقراطي الانجليزي او نظام الاممية السوفيتي او الحزب الوحيد في الديمقراطيات الشعبية الشرقية ، ولا مندوحة له عن ان يتأثر بالليبرالية الامريكية او بالماركسية كمنهج فلسفي ونتاج حضارة فكرية .

بين مجلس الأمة والسلطان وغير ذلك من الاسس الديمقراطية . وقد فاجأ الاحتلال المغرب قبل تنفيذ هذا الدستور وبداية المرحلة الديمقراطية . واحتجنا الى اكثر من نصف قرن لنسمع بمشروع دستور آخر للمغرب . وما يزال الوضع الديمقراطي مضطربا غير مستقيم . وكان الاستعمار الغربي هو السبب .

هناك اذن عضا وضعها الاستعمار في دواليب التطور الحضاري في الوطن العربي . ولكن ليس المسؤول عنها الفكر الغربي الذي تسرب الى الوطن العربي ، ومنه استمدت هذه الانظمة والتفكير فيها ، بقدر ما هو مسؤول الاستعمار الغربي وفرق بين الرايين .

رابعا : ينهب الدكتور ابولقد الى ان التجزئة السياسية التي احدثها الاستعمار قبلتها ومارستها الحركات الوطنية التي استلمت الحكم في هذه البلاد .

ورغم انني من الودحيين العرب ، ومن الذين ناضلوا في سبيل وحدة المغرب العربي منذ الاربعينات ، ورغم ان بلادي المغرب كانت من اشقى البلاد العربية التي اصابها الاستعمار بالتفتت والتنزيق فقسمت الى دول واقتطعت منها اجزاء وما يزال الاستعمار يحتل اجزاء منها ، رغم ذلك كله فاني اعتقد ان الاستعمار ليس مسؤولا عن التجزئة السياسية في الوطن العربي . فلم يكن هذا الوطن في يوم ما وحدة كاملة حتى في عهد الخلافة العباسية . حقا لقد مر الوطن العربي بوحدات افليمية . المغرب العربي في عهد المرابطين والموحدين وبعض فترات المرينيين ، مصر والشام في عهد الايوبيين وعهد محمد علي وابنه ابراهيم ، بلاد الشام في كثير من عهود التاريخ . وحقا ان الامبراطورية العثمانية وحدت البلاد العربية في مجموعة ولايات ، ولكن كل ذلك لم يعط الطابع الوحدوي السياسي لهذه البلاد جميعها . ولهذا فالوحدة التي عرفها الوطن العربي هي الوحدة الفكرية الثقافية الحضارية ، المدنية اللغوية ، وهي بدون شك اقوى من الوحدة السياسية او هي السبيل الى تحقيق الوحدة السياسية او اردنا ذلك . وهذه الوحدة لم يستطع الاستعمار ان يقضي عليها ، ولم يستطع الفكر الغربي الذي احبب النزعات الافليمية كالفرعونية والبربرية والفينيقية والزنجية .

معنى هذا ان الحركات الوطنية التي استلمت الحكم بعد الاستعمار لم ترث واقعا استعماري تبنته ولم تحاول تغييره ، ولكنها ورثت واقعا تاريخيا - ان صح التعبير - ستنتج في تغييره لو تبنت الامة العربية فكرة حضارية جديدة تقوم على اساس الامة العربية بالمعنى الحضاري الثقافي الفكري الاقتصادي لهذه الامة ، الا بالمعنى العرقي .

فماذا نريد ان نكون وما هي الحضارة التي نريد ان نبني . هذا هو جوهر الازمة .

نحن لا نستطيع ان نتخلص من كل هذه المظاهر الحضارية التي وفدت علينا مع الغرب بكل سيئاتها التي عرفنا وبكل محاسنها التي تفري . ولا نستطيع ان نهزم امام التحدي الحضاري الذي واجهنا مع الاستعمار ، ولا نستطيع ان نتخلص من ماضيها وتراثنا ومفاهيمنا للحياة ، ولكننا لا نستطيع ان نتوقع حول هذه المفاهيم القديمة حتى لو اردنا ذلك .

هناك صدام بين التراث كما وراثنا في مظاهره الفكرية والاجتماعية والابداعية الفنية من ادب ورسوم وموسيقى وفنون شعبية ، وبين المعاصرة الحضارية كما وردت علينا من الغرب والشرق . وهناك صدام بين الانظمة التقليدية التي وراثنا في الحكم وفي الاقتصاد ، وبين الانظمة الحديثة المتمثلة في مظاهرها الديمقراطية الغربية او الدكتاتورية المقنعة ، او الديمقراطية الاجتماعية ، وفي مظاهرها

القضية ليست قضية استعمار او تاثر بالفكر الغربي بمقدار ما هي قضية معاصرة ولا اظن الدكتور الا متفقا معي في ان حرصنا على التراث الحضاري والفكري والفني لا يمنعنا من ان نعيش عصرنا ، وان نتعامل مع المنطلقات الحضارية لهذا العصر ، كما لو كانت منا والينا . ذلك لان القيم الحضارية الاصلية تختفي فيها الشرفية والغربية ، فهي قيم انسانية او اصيحت كذلك . ولهذا فهي ملك لنا جميعا ، اذا اقتبسنا منها - وليس لنا مجيد - فليس ذلك ان الفكر الغربي الاستعماري ما يزال مهيمنا علينا . ولكن الافتباس ليس معناه الاندماج والتعبد واقفال الفكر دون الاختيار السليم وتجاوز المظلمات التي قد لا تصلح لهذا المجتمع او ذاك والتخلص من التجارب - حتى الفكرية منها - المتجاوزة والتي برهنت عن فشلها .

وثانيتها حين يقول : « لم يعد للفكر السياسي العربي الاصلي اي انعكاس في الحكم في العالم العربي » . او حين يقول : « ان الفكر العربي لم يعد الى التاريخ العربي ليدرس ويوضح الاسس الاشتراكية لمجتمع عربي سابق » .

وانا لا اعرف فكرا سياسيا عربيا اصيلا يصمد للبقاء بشكله القديم في العصر الحاضر . فكل نظريات الحكم التي عرفها العرب والمسلمون اندمجت واختلطت بالانظمة الجديدة على اختلاف اشكالها . وحين نقتبس من الغرب فنحن لا نلقي تراث العرب الفكري في السياسة والحكم ، لان شورى النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه وعدالة العبرين يمكن تحقيقها جميعا مع الاشكال الديمقراطية البرلمانية مثلا ، ولا تكون في ذلك غريبين اكثر منا عربا او شرقيين . وبعدالية المسلمين الاقتصادية والاجتماعية تنشر ظلالتها على الاشتراكية المعاصرة ، ولكن لا يمكن العودة الى مجتمع عربي سابق الا اذا الفينا الزمان وعشنا منطوبين على انفسنا . والتفتح الحضاري لا يسمح لنا بذلك .

نعم من الجائز ان تكون لنا انظمتنا الديمقراطية مثلا التي تتفق مع حاجياتنا وتساهم في النهوض بمستوى الحكم عندنا على اسس عربية اسلامية لتخرجه من الانظمة الاقطاعية والقبلية والطائفية والمسكوية لتكون للشعب كلمته . والفكر الغربي لا يمنعنا من ذلك ، ان لم يكن يساعدنا على اجتياز عتبة الماضي المظلم والحاضر المنحرف المضطرب .

ثالثا : احب ان اوضح ان هناك فرقا بين الاستمداد الحضاري والفكري من الغرب وبين ما صنعه الاستعمار حينما حل ببلادنا . ولهذا فانا منتقد مع الدكتور ابولقد حينما يقول : « ان محاولات استئناف النشاط الفكري والسياسي سبقت الوجود الاستعماري في المنطقة ، وكان للوجود الاستعماري اثر سلبي على هذه الحركات الاصلية بحيث انه شوهها وحول وجهتها واهدافها وسلبها اصالتها » .

فقد اوقف الاستعمار على الاقل تطور انظمة الحكم في العالم العربي جميعه والاهتلة موجودة في بحث الدكتور ابراهيم اضياف اليها مثلا واحدا غفل عنه ، هو الحركة الدستورية الديمقراطية التي قامت في المغرب على يد جماعة من المثقفين الذين اشتروا لمبايعة السلطان عبد الحفيظ سنة ١٩٠٨ عدة شروط ، منها الرجوع الى الامة والبعد عن الحكم الفردي المطلق ، والوقوف في وجسه الاستعمار والجيش الاستعماري الذي كان قد اخذ يهاجم المغرب من اطرافه على الحدود الجزائرية ، وفي شواطئ الدار البيضاء . ثم وضعوا مشروع قدموه للسلطان ليصادق عليه ، ويؤكد هذا الدستور استقلال المغرب ، والحريات العامة ، وحرية الراي والتعبير والنشر ، والزامية التعليم ، والمساواة في الحقوق والواجبات وضمان العدل ، كما ينظم السلطات

الليبرالية والاشتراكية والشيوعية .

اننا لا نستطيع ان ننتمي انتماء كاملا لحضارة الغرب بكل آفاقها وبكل تجاربها الناجحة والفاشلة .

وفد يكون هذا الموقف غريبا من عالم يتفتح على المستقبل ، اذ حضارة برهنت على تفوقها وعلى قدرتها على الوصول الى المستقبل في الحاضر . فد يكون نوعا من الرجعية وعدم اعتراف بالتفوق الحضاري الحديث او عدم ثقة فيه ، وذلك مظهر من مظاهر عقدة الخوف التي اشرنا اليها سابقا .

ولكننا مع ذلك لا نستطيع ان ننتمي الى عالم عربي اسلامي مقفل فنولي ظهونا للتطور الحضاري الغربي ، وقد قلنا من قبل اننا لا نستطيع ذلك ولو اردنا .

الانتماء الكامل للغرب ولو باعتبار مصر - مثلا - جزءا من اوروبا كما كان اثنادون ينادون في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن ، او اعتبار المغرب جزءا مما وراء البوغاز ، لان هذا الانتماء او ذلك لا يحل المشكلة .

والتفوق في عالم عربي اسلامي مقفل لا يحل المشكلة كذلك . فما هو الموقف ؟

امامنا مثال من اليابان والصين على اختلاف الاتجاهين . فقد اقتحمتها معا الحضارة الحديثة، واقتبسنا من الغرب منهجها المختلف، على اساس مناهيين مختلفين في ثورتها الفكرية والاقتصادية والاجتماعية ، ولكنها معا ينتميان الى اوروبا وامريكا ، بكل ابعادها وآفاقها . الصين جزء من العالم الاوربي الشيوعي ، ولكنها ما تزال الصين في اسسها الحضارية تستمد من تاريخها وتراثها الفكري وربما العلمي والطبي . اليابان جزء من العالم الاوربي الامريكي في تقنياتها الصناعية ونشاطها الاقتصادي والعمراني ، ولكنها ما تزال اليابان في تقاليدها واسسها الحضارية وتراثها القديم حتى الخرافي منه .

هل ذلك يعني ان هناك وجهتين للحضارة : واجهة متحركة متجددة نافذة وهي التي تسير الحياة ، وواجهة تعيش مع الماضي وتصلح لتكون حضارة المتحف .

يخيل الي ان المثال من الصين واليابان يضمننا في عمق ازمة التطور الحضاري وهو الاخر لا يحل المشكلة .

ونعود فنسأل : ماذا نريد ان نكون وما هي الحضارة التي نريد ان نبني .

في غمرة التفكير في الازمة نؤكد لانفسنا ان المظهر العام للحضارة الحديثة غربية او شرقية سيصبح انسانيا . فهي ليست حضارة اوروبا او امريكا فحسب ، ولكنها تستمد اسسها من كل التراث الانساني ، ويجب ان تعود تراثا لكل الانسانية . هي اذن حضارتنا بمقدار ما هي حضارة الاوربيين والامريكيين ، لان اوروبا هي اليونان بكل تراثها الفكري والفلسفي والفني ، وامريكا هي روما بكل تراثها التوسمي وكل عملها الكبير العظيم ، وتراث اليونان والرومان مر - او بعضه على الاقل - من هنا ، من ارض العرب ليصل الى اوروبا ثم امريكا ... فهذه الحضارة اذن تراث لنا فيه ضلع ، ولا يمكن ان نجد ما ساهمنا في اقامة اسمه بعد ان اصبح انسانيا عاليا .

وعلى ذلك فهو فئنا من هذه الحضارة يجب ان يتسم بالفهم الصحيح لمسؤوليتنا في الحياة العصرية وفي بناء كياننا على اساس من الواقع حتى لا تكون مرة اخرى ضحية للاستعمار نتيجة لتغلطنا الذي سياخذ طابعا اخر .

هناك الحضارة الفكرية التي يجب ان يعتبر كل تراثها القديم الاوربي والاسلامي والمسيحي والعربي تراثا انسانيا . ولا محيد لنا عن المساهمة في تطور الفكر الانساني دون اية عقدة او مركب ، نقبل او نرفض لا بهم ، ولكن الهم ان يكون كل هذا التراث لنا نساهم فيه كما تساهم فيه اية دولة من قلب اوروبا او من اطراف آسيا او امريكا . وهناك الموقف من الحضارة الاقتصادية . جانبها العملي لن

يستثيرنا ، فقد اصبح اقتصادنا كمنتجين ومستهلكين جزءا متمما للاقتصاد العالمي ولا محيد عن ان يكون كذلك . فقد نفد موفد الاختيار بين الليبرالية والاشتراكية المقيدة ، تلمي علينا هذا الاختيار مصلحة شعوبنا الفقيرة الجائعة وسرعة التطور حتى في العالم الثالث، ولكن لا بد من ان نسير في تيار الحضارية الانسانية الحديثة .

هناك الانظمة السياسية التي ما تزال نعيش فيها كما يعيش العالم الثالث موزعين بين الحكم الفردي بمختلف مظاهره ، ولا سلطان للشعب على مصيره ، وبين الحكم المشائري والقبلي والطائفي . ولا يمكن ، ونحن بسبيل الى التطور من هذه الانظمة المتخلفة ، ان نعود الى الانظمة القديمة مهما كان طابعها اسلاميا او عربيا . لا بد من ان نساير العصر لنختار بين الانظمة الديمقراطية اصلحها لبلادنا واكثرها تحقيقا للحرية واضمنتها لمشاركة الشعب في تدبير شؤونه .

وهناك الجانب الابداعي في الحضارة الانسانية : الاداب والفنون الجميلة والفنون العمارة . وعقربتنا في هذه الحضارة ان تذوب اذا ما سلكنا سبيل الحضارة الانسانية فيما ننتج من آداب ورسم وموسيقى ورقص ومعمار .

وهناك الحياة اليومية التي يطبعها الاقتصاد والفكر والسياسة ، تتحكم فيها كل هذه النابع لتصوغها حياة مماثلة لحياة الانسان في اوروبا وامريكا والصين واليابان .

موقفنا من كل هذه الافاق الحضارية لا يعني اننا سنأخذ ونقلد لنصبح صورة ممسوخة من الغرب او الشرق ، ولكننا ، ونحن نندمج في هذه الحضارة دون عقدة او خوف ، سنحتفظ بتراثنا نهل منه كل ما يساهم في تطورنا الحضاري ، ولا يقف حجر عثرة في سبيل تحررنا من التخلف ، وكل ما يطبع منهجنا بالذاتية والتفرد .

سنكون انسانيين ، ولكننا عرب ومسلمون نساهم في الحضارة الحديثة بكل ابعادها ولكننا نحتفظ بذانيتنا حتى لا نكون ذبلا للآخرين . ندرس بعق كل التيارات الفكرية المعاصرة ، ولكن لا يكون بعضنا متبدا في محراب الراسمالية او الشيوعية الا عن اقتناع فكري وليس عن انجذاب وراء الشعارات .

بهذا التحرر من جميع العقدة يمكن ان نحل مشكلة التطور الحضاري ، ويمكن بالتالي ان نقضي على رواسب الاستعمار الذي حاول ان يسلب عن بلادنا كل اصالة حضارية وفكرية في الوقت الذي حاول ان يجعلها صورة ممسوخة لمثاله .

دار الطليعة تقدم

دراسات ادبية

ق.ل

● لعبة الحلم والواقع. دراسة في ادب توفيق الحكيم ٤٥٠

جورج طرابيشي

● الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية ٢٥٠

جورج طرابيشي

● مذكرات ثقافة تحضر ٧٥٠

غالي شكري

● ثقافتنا بين نعم ولا ٤٥٠

غالي شكري

● حتى تقهر الموت ٣٥٠

صلاح عبدالصبور

● الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الاول ٥٥٠

د. حسين عطوان

● وجهها الحياة ٢٠٠

البير كاهو

بيروت - ص ٠ ب ١١٨١٣